التتري

جنان جاسم حلاوي

الريح تدفع أوراق الشجر الصفر الميتة فوق الأسفلت فتلتصق بالطين والماء الراكد في الحفر . الشوارع شبه خالية والسماء قطعة من رصاص متكتل .

انكمشت داخل معطفي ، اختبأت فيه ثم رفعت ياقته واتجهت صوب فندقي المتواضع . البيوت مغسولة بأمطار الليلة الفائتة . خلفتها ورائي . تجاهلتها ، تجاهلت المارة والشوارع وأشجار الصنوبر المتعامدة على جانبي الطريق ، ولجت الفندق ، زاغت الاشباح من أمامي . العتمة قاسية ، متحجرة لولا الضوء الضئيل المنبثق من الشباك ، والذي هدأ من وقع اختلاف النور على عيني . صعدت الدرج الداخلي الى حجرتي القابعةفي الطابق الثاني . الدرجات بدت غير اعتيادية ، مبلولة بشيء ما . . . شيء كثيف يختلف عن أن يسميه المرء ماء أو طيناً أو قيئاً . انحنيت ومسحت ارضية الدرج بسبابتي ، التي ما ان قربتها من الضوء الخافت المنبجس وسط الظلمة حتى تأكد لي ، ان ما يلطخ اصبعي دم متجلط مسود . تتبعت خيوط الدم الدكناء حتى نهاية الدرجة العليا . لحظت آثار اقدام ملوثة بالدماء متجهة الى مكان ما . حاولت جهدي أن اتتبع خيط الدم : هنا جنب هذي الغرفة ، أو هناك عند ذاك الحائط أو بعيداً في ذلك الرواق حتى انتهيت عند باب مألوف نصف مغلق ، لو فتحته لوجدت خلفه غرفتي التي أنام فيها كل يوم . سارعت إلى فتح ضلفة الباب . دهشت . كان الدم يلطخ الغرفة ، والسرير يقطر دماً ، والحرام غيرت ألوانه بقع الدماء . كانت آثار الاصابع الدموية مرتسمة على الجدران والمائدة والستائر والكتب وحتى على فرشاة الأسنان وابريق الشاي والتقويم المعلقة فوقه مرآة مستديرة . ارتعبت ، وددت أن أغادر المكان وكأني لم أره وأطأه مطلقاً . تقلصت أصابعي ، كدت أنهار . . إنها لمفاجأة غير متوقعة . لماذا لا يلبس الانسان طاقية الاخفاء ويختفي ؟ لماذا لا يختبىء بين الغيوم أو في فوهة بركان أو في قاع بحر أو يطير بعيداً الى الكواكب المجهولة النائية ؟ لماذا لا يتحوّل إلى معطف أو مجرد جلد ممسوح القسمات ؟ وهل يختبىء الانسان داخل جلده أو ينزع جلده كما يقولون؟ . . انتبهت الى أن أحداً ما يرقد فوق السرير. تحسّسته كأني أوقظه ، أو لأتأكد من أنه موجود فعلاً تحت الأغطية . دفعت الحرام حتى رجليه . كان بديناً بعض الشيء ، ممزق الملابس ، أشعث الشعر ، غطت خاصرته بقعة دم كبيرة . قلبته على جنبه . بان مقبض من خشب الصنوبر المنحوت ناتئاً بين ملابسه . وجدته مطعوناً بسكين ضخمة شق نصلها بطنه حتى خاصرته ببشاعة مقصودة . كان ميتاً ، جثة مكشرة الاسنان ، باردة ، هامدة منذ ساعات . رجعت إلى الخلف متمتماً . . « من يا ترى قتله ؟ من سحبه ؟ لماذا أتوا به إلى غرفتي ؟ » . . .

تركت الغرفة هلعاً تطاردني التساؤلات ، يلفها الغموض . . . . هل آشتركت بجريمة ما دون أن أدري ؟ . . الفندق هادىء هدوء المقابر ، والأبواب نصف مفتوحة . لم اجرؤ على أن الج أياً منها . الطابق الأرضي معتم أو مضاء اضاءة خفيفة في بعض الجوانب من نافذة عالية في الجدار . لماذا تركوا الفندق ؟ الرواق أمامي فارغ . تشق أرضيته منساحة ، خيوط دماء أو آثار أقدام دموية حتى باب موارب . . سأجازف هذه المرة أو أهرب . وأتسلق حوائط ، البيوت القريبة لأخبر أحداً ما . مشيت متردداً ثم خببت كالحصان ودفعت الباب . أطللت قليلاً ثم دخلت . . صعقت . . وكأنني تفككت تماماً أو تبخرت أو فقدت وعيي لقرن من الزمان ثم أفقت حتى أنني لا أدري كيف انتبهت على صوت حاد ، آمر ، تنطقه شفاه يعلوها شارب خفيف ، يتهدل فوق ملامح خلتها تترية أو مغولية أو خليطاً لعدة وجوه قاسية كلبية العيون . كرر مرة ثانية صوته ، ظننته قال :

ـ تعال . . . تعال

سألته متردداً : ـ من أنت ؟

قال آمراً وقد حدجني بعينين عميقتين . ضيقتين ، مشيراً إلى مقعد حديدي واطىء :

ـ اقترب وآجلس هنا . .

اقتربت منه ولكني لم أجلس بل لم اقترب إلا قليلاً . سألني :

ـ لماذا قتلت مرّوض الأسود ؟

ـ أي مروّض ؟ ولماذا أقتله ؟

ـ وهل تنكر ؟

ـ لا علاقة لي بالأمر ، ولماذا أنكر . . ها ؟

ـ لقد وجدت جثته في غرفتك .

ـ ربما سحبها احد إلى هناك . .

ـ انك تنكر . ها ؟ تنكر يا ابن الـ « . . . . »

كان التتتري جالساً على كرسي وسط الغرفة ، ولكني لم أر قربه أي أثر للدماء سوى عدة غريبة من الشفرات النظيفة والأسلاك والأخشاب المنجورة بدقة ، ومائدة وضعت عليها أوراق عديدة وقلم . لقد شغلتني عيناه وصراخه عن رؤية كل ما في الغرفة . قررّت أن أغادرها مسرعاً ولو اضطررت ـ اذا منعني هذا الوغد ـ ان أقتله فعلاً . . .

وكما لو أنني طرت وتلاشيت ، هربت نازلاً الدرج ـ حتى كدت

أتزحلق ببقع الدم ـ دافعاً باب الفندق ، منسلاً إلى أول زقاق واجهني . ركضت عابراً الأزقة والشوارع والفنادق والبيوت . . اصطدمت أكثر من مرة بالناس ، بالأشجار . مجنوناً ظنّوني أو هارباً من السجن أو لصاً . حاول أحدهم أن يطاردني بل حاول شرطي أن يمسك بي جاداً ، حتى حسبت أن الغيم يطاردني والسماء تسرع خلفي ، والشوارع تكبّل أرجلي والأرصفة تتعبني وتعيّقني ، وأنا الهث . . ألهث . . والهث مأخوذاً . وقفت جنب زقاق فرعي . جلست على دكة اسمنتية ، ووضعت رأسي بين راحتي . كان صدري يعلو ويهبط ، وقلبي ينبض بقوة ، ومعدتي تخور ، ورجلاي تتداعيان . كنت تعباً حتى العظم . أوشكت أن أرفع رأسي اذ أن هاجساً ما دفعني لأحدق في الرجل الواقف أمامي . فضّلت أن أبقى على حالتي حتى أنام وأهدأ . ولكن الهاجس كان يعذّبني ، يحفزّني ، ويرعبني . رفعت رأسي الى أعلى قليلاً ، لحظته يقترب مني ببرود ، وقوة . التفتّ إلى نهاية الزقاق علّني اجد منفذاً للهرب ، تأمّلته مليّاً : كان رجلاً قصيراً ، ممتلئاً ، يلفّه الضباب ، وتحجب وجهه قبّعة مسدلة وياقة معطف عالية ، يحدّق فيّ ، ويتقدّم مني خطوة . . خطوة . ببطء ، بهدوء وعناد غريبين حتى بانت ملامحه في ضوء النهار الخافت ، متخذة هيئة ترية مخيفة . وقف قريباً ـ بضع خطوات ـ عني ، جنب أحد الأبواب ، وراح يتابعني بعينين حاقدتين لم أر مثلهما في حياتي . . . المسافة بيننا تتقلص ، تهتز ثم تختفي كذيل نيزك لا يني يذوب مثلما يتوهج بانخطاف . تراجعت متعثّراً ، مستغرباً ، صارخاً فيه بصوت حاد ـ ولو أنني كنت وقتها لا أملك امكانية الصياح العنيف ـ ما لبث أن تهدّج وخفت :

ـ ماذا تريد مني ؟ . . . لم أقتل أحداً . . ما شأني بمروض الأسود ؟ ما شأني أنا ؟ . . . . أتركني . . . .

خلفته ورائي ومشيت مستوفزاً كأني أخطو على ايقاع ناقوس يرن بوحشية . كنت احسن بنظراته تسلخ جلد ظهري وتطوف في دمي وتطأ كل خلية في ، وتحرق أعصابي بنار هادئة . كنت أسمع وقع خطواته خلفي تلاحقني ، تمزّقني ، وتدفعني دفعاً الى دائرة التساؤلات المستحيلة . . . من أين أتى هذا الرجل ؟ ولماذا يتّهمني بالقتل ؟ ولماذا لا يتردّد في اتهام الناس ؟ وهل يجوز أنه قتل مروّض الاسود ليتهمني ؟ وهل يجد الجسارة ليعلن ذلك أمام الملأ ؟

عجزت عن أن أثبت شيئاً . قد أذهب إلى دائرة الشرطة وأخبرهم . ولكن من يبرئني ؟ وقد يملك هذا الوغد أدلة حقيقية ضدي . . . لقد سمعت قديماً ان بعض الناس يقتلون دون أن يدروا ، ولكنني يا إلهي كنت واعياً تماماً عندما أفقت صباحاً ، وتركت الفندق ، وأفطرت ، ثم ذهبت لزيارة بعض الاقارب ، معرجاً على صندوق الرسائل ، حتى أذكر أنني ضايقت بعض الفتيات ثم تذكرت أنني نسيت مظلّتي فرجعت لآخذها . وماذا في الأمر غير ذلك ؟

الشوارع ملؤها وحل ، والصنوبر المثقل بالحزن لا يلبث يتمايل مع كل هبّة ، والسماء تنثّ مطراً خفيفاً .

التفتّ خلفي . لم أجده . واصلت سيري حتى مقهى قريب . روّاده قلائل . دافىء نوعاً ما . بحثت في الوجوه عن وجه أليف ، مؤنس ، التجىء اليه . كان الضباب ـ الذي هبط على المدينة منذ لحظات كأجساد ملائكة بيض ، شفافة ـ يلتصق بزجاج المقهى مع الدخان والانفاس الرطبة . دفعت الباب الزجاجي . ولما لم أجد من يكسر وحدتي وخوفي ، اخترت لي مكاناً ما والتجأت اليه .

طلبت شاياً ، شربته ، دخنت سيجارة ، متابعاً أوضاع الجالسين والداخلين والخارجين . سمعت همساً خلفي ، ولهاثاً حاراً يلفحني ـ أو خلته يلفحني ـ ويثير زغب رقبتي ، التفتّ ، وجدته أحد الرواد ، وقد سارع فأعطاني ظهره ، وجعل يدخن « النارجيلة » تقصّدت أن أرى وجهه ، منحنياً جنبه بتهيّب . كان يبتسم ويهمس بكلمات غامضة . استدار فجأة وفتح عينيه الصغيرتين ، الضيقتين كعيون التتر أو المغول بوجهي . حتى أنني لم أر في عمقهما الا قسماتي وقد حنّطها الذهول . ومثل شيء حادّ وخزني . صرخت . هربت ـ هو حلم ما ؟

ـ ركضت في الأزقة . في الشوارع . تسلقت بعض الاسيجة ـ هل هي حقيقة ؟ عبرت الساحات . ركض بعض الناس خلفي . وجدت نفسي مباشرة أمام باب الفندق تسلقت الدرجات ، ثم فتحت باب غرفتي بعد أن وجدته مقفلاً . كانت الغرفة نظيفة . هادئة ، لا يبدو عليها أي أثر للعنف ، وللمرة الأولى شعرت بأنني تعب جداً وان ملابسي رطبة نوعاً ، تحسستها ، وجدتها ملطخة بالدماء تمددت على السرير مخذولاً وانا اتلمس المقبض الخشبي الصنوبري ، وقد آنغرز نصله في جنبي : حقيقة مرعبة هجستها . أغمضت عيني ، ثم فتحتها فجأة على عينين خرزيّتين تحدقان بي : عيني رجل أشعث شوّه وجهه رعب فظيع . جسّ جسدي كأنه يوقظني ، رفع الحرام عني ، قلبني ، تفحص المقبض الخشبي ، ثم تمتم مع نفسه « من يا ترى قتله ؟ من سحبه ؟ لماذا اتوا به إلى غرفتي ؟ »

تراجع إلى الوراء مدهوشاً . فتح باب الغرفة بأناة كأنه يخاف أن يزعجني ثم ولى هارباً . . . تحاملت على نفسي ، وتطلعت من النافذة . كان الأشعث يمشي مسرعاً أو يركض في الزقاق المقابل وقد تبعه رجل تتري قصير ، بهدوء وحذر عجيبين .

تلك هي النافذة موصدة ، والغرفة ساكنة تقلقها ضربات قطرات المطر على الزجاج . . . كانت السماء تهطل بغزارة والصنوبر يهتز بعنف والشارع تجرفه المياه ، وجثتي المدماة ، هامدة ، رخوة ، يغزوها الخدر ببطء . . ببطء شديد .

بغداد